

(٨٤) [الرقيب]

ورد اسمه سبحانه (الرقيب) في القرآن الكريم ثلاث مرات وذلك في قوله - عز وجل - : ﴿ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾ ﴾ [المائدة: ١١٧].

وقوله سبحانه: ﴿ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾ ﴾ [النساء: ١].

وقوله تبارك وتعالى: ﴿ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ رَّقِيبًا ﴿٥٢﴾ ﴾ [الأحزاب: ٥٢].

المعنى اللغوي:

قال في الصحاح: « (الرقيب): الحافظ، والرقيب: المنتظر، تقول: رقت الشيء أرقبه رُقُوبًا ورِقْبَةً ورقبَانًا بالكسر فيهما: إذا رصدته»^(١).

وفي اللسان: «في أسماء الله تعالى: (الرقيب) وهو الحافظ الذي لا يغيب عنه شيء، فعيل بمعنى فاعل، والترقب الانتظار، وكذلك الارتقاب ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ وَلَمْ تَرَقُبْ قَوْلِي ﴿٩٤﴾ ﴾ [طه: ٩٤]، ومعناه لم تنتظر قولِي»^(٢)، والترقب: تنظر وتوقع شيء.

وقال الزجاجي: «وراقب الله تعالى في أمره، أي: خافه، والرقيب فعيل بمعنى فاعل كعليم بمعنى عالم»^(٣).

المعنى في حق الله تعالى:

قال الطبري - رحمه الله تعالى - عند قوله سبحانه: ﴿ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾ ﴾ [النساء: ١].

(١) الصحاح ١/١٣٨.

(٢) اللسان ٣/١٦٩٩.

(٣) اشتقاق الأسماء ص ١٢٨.

«ويعني بقوله: (رقيباً): حفيظاً محصياً عليكم أعمالكم متفقداً رعايتكم حرمة أرحامكم وصلتكم إياها وقطعكموها وتضييعكم حرمتها»^(١).
وقال الزجاجي رحمه الله تعالى: «(الرقيب) هو الحافظ الذي لا يغيب عما يحفظه»^(٢).

وقال الإمام ابن القيم - رحمه الله تعالى - في نونيته:

«وهو الرقيب على الخواطر واللواحق

كيف بالأفعال بالأركان»^(٣)

ومعنى قوله: «كيف بالأفعال بالأركان»: أي أنه إذا كان الله - عز وجل - رقيباً على دقائق الخفيات، مطلعاً على السرائر والنيات كان من باب أولى شهيداً على الظواهر والجليات، وهي الأفعال التي تفعل بالأركان أي الجوارح»^(٤).

وقال الشيخ السعدي رحمه الله تعالى: «الرقيب والشهيد من أسمائه الحسنی هما مترادفان، وكلاهما يدل على إحاطة سمع الله بالمسموعات، وبصره بالمبصرات، وعلمه بجميع المعلومات الجلية والخفية، وهو الرقيب على ما دار في الخواطر، وما تحركت به اللواحق، ومن باب أولى الأفعال الظاهرة بالأركان»^(٥).

(١) تفسير الطبري ٤/ ١٥٢.

(٢) تفسير الأسماء ص ٥١.

(٣) النونية ٢/ ٢٢٨ البيت: (٣٢٨٤).

(٤) انظر شرح القصيدة النونية للسعدي ص ٨٩.

(٥) الحق الواضح المبين ص ٥٨.

وقال أيضاً: «والرقيب المطلع على ما أكتته الصدور، القائم على كل نفس بما كسبت، الذي حفظ المخلوقات وأجراها على أحسن نظام وأكمل تدبير»^(١).

من آثار الإيمان باسمه سبحانه (الرقيب):

ما ذكر من الآثار السابقة في أسمائه سبحانه (السميع)، (البصير)، (الشهيد) يصلح أن يذكر هنا، ويؤكد فيها على الثمرة التالية:

إن التعبد لله سبحانه باسمه (الرقيب) يثمر في القلب مراقبة الله - عز وجل - في السر والعلن، في الليل والنهار، في الخلوة والجلوة، لأنه سبحانه مع عبده لا تخفى عليه خافية، يسمع كلامنا ويرى مكاننا، ويعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، فإذا أيقن العبد بهذه الحقائق سعى إلى حفظ قلبه وسمعه وبصره ولسانه وجوارحه كلها من أن يكون منها أو فيها ما يسخط الله - عز وجل -.

وعن منزلة المراقبة يقول الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى: «المراقبة» هي التعبد باسمه (الرقيب، الحفيظ، العليم، السميع، البصير) فمن عقل هذه الأسماء وتعبد بمقتضاها: حصلت له المراقبة. والله أعلم»^(٢).

ويقول أيضاً: «(المراقبة) دوام علم العبد، وتيقنه باطلاع الحق سبحانه وتعالى على ظاهره وباطنه، فاستدامته لهذا العلم واليقين: هي «المراقبة» وهي ثمرة علمه بأن الله سبحانه رقيب عليه، ناظر إليه، سامع لقوله،

(١) تفسير السعدي ٦٢٥/٥.

(٢) مدارج السالكين ٦٦/٢.

وهو مطلع على عمله كل وقت وكل لحظة، وكل نفس وكل طرفة عين، والغافل عن هذا بمعزل عن حال أهل البدايات، فكيف بحال المريدين، فكيف بحال العارفين؟

وقيل: من راقب الله في خواطره، عصمه في حركات جوارحه.

وقيل لبعضهم: متى يَهْشُ الراعي غنمه بعصاه عن مراتع الهلكة؟ فقال: إذا علم أن عليه رقيباً.

وقال الجنيد: من تحقق في المراقبة خاف على فوات لحظة من ربه لا غير.

وقال ذو النون: علامة المراقبة إيثار ما أنزل الله، وتعظيم ما عظم الله، وتصغير ما صغر الله.

وأرباب الطريق يجمعون على أن مراقبة الله تعالى في الخواطر: سبب لحفظها في حركات الظواهر؛ فمن راقب الله في سره، حفظه الله في حركاته في سره وعلايته^(١).

ثم استطرد - رحمه الله تعالى - في موجبات هذه المراقبة فقال: «وهي توجب صيانة الباطن والظاهر، فصيانة الظاهر: بحفظ الحركات الظاهرة. وصيانة الباطن: بحفظ الخواطر والإرادات والحركات الباطنة التي منها رفض معارضة أمره وخبره، فيتجرد الباطن من كل شهوة وإرادة تعارض أمره، ومن كل إرادة تعارض إرادته، ومن كل شبهة تعارض خبره، ومن كل محبة تزاحم محبته، وهذه حقيقة القلب السليم الذي لا ينجو إلا من أتى الله به؛ وهذا هو حقيقة تجريد الأبرار المقربين العارفين؛

(١) مدارج السالكين ٢/ ٦٥، ٦٦.

وكل تجريد سوى هذا فناقص، وهذا تجريد أرباب العزائم...

والاعتراض ثلاثة أنواع سارية في الناس. والمعصوم من عصمه الله منها.

النوع الأول: الاعتراض على أسمائه وصفاته بالشبه الباطلة، التي يسميها أربابها قواطع عقلية؛ وهي في الحقيقة خيالات جهلية، ومحالات ذهنية اعترضوا بها على أسمائه وصفاته - عز وجل - وحكموا بها عليه، ونفوا لأجلها ما أثبتته لنفسه، وأثبتته له رسوله ﷺ، وأثبتوا ما نفاه، ووالوا بها أعداءه، وعادوا بها أوليائه، وحرفوا بها الكلم عن مواضعه، ونسوا بها نصيباً كثيراً مما ذكروا به، وتقطعوا لها أمرهم بينهم زبراً، كل حزب بما لديهم فرحون.

والعاصم من هذا الاعتراض: التسليم المحض للوحي، فإذا سلم القلب له: رأى صحة ما جاء به، وأنه الحق بصريح العقل والفطرة؛ فاجتمع له السمع والعقل والفطرة؛ وهذا أكمل الإيمان، ليس كمن الحرب قائمة بين سمعه وعقله وفطرته.

النوع الثاني: الاعتراض على شرعه وأمره، وأهل هذا الاعتراض: ثلاثة.. أنواع:

أحدها: المعارضون عليه بأرائهم وأقيستهم، المتضمنة تحليل ما حرم الله سبحانه وتعالى، وتحريم ما أباحه، وإسقاط ما أوجبه، وإيجاب ما أسقطه، وإبطال ما صححه، وتصحيح ما أبطله، واعتبار ما ألغاه، وإلغاء ما اعتبره، وتقييد ما أطلقه، وإطلاق ما قيده.

وهذه هي الآراء والأقيسة التي اتفق السلف قاطبة على ذمها،

والتحذير منها، وصاحوا على أصحابها من أقطار الأرض، وحذروا منهم، ونفروا عنهم.

الثاني: الاعتراض على حقائق الإيمان والشرع بالأذواق، والمواجيد والخيالات، والكشوفات الباطلة الشيطانية، المتضمنة شرع دين لم يأذن به الله، وإبطال دينه الذي شرعه على لسان رسوله ﷺ، والتعوض عن حقائق الإيمان بخدع الشيطان، وحفظ النفوس الجاهلة...

وهؤلاء في حظوظ اتخذوها دينًا، وقدموها على شرع الله ودينه، واغتالوا بها القلوب، واقتطعوها عن طريق الله؛ فتولد من معقول أولئك، وآراء الآخرين وأقيستهم الباطلة، وأذواق هؤلاء خراب العالم، وفساد الوجود، وهدم قواعد الدين، وتفاقم الأمر، وكاد لولا أن الله ضمن أنه لا يزال يقوم به من يحفظه، ويبين معالمه، ويحميه من كيد من يكيد.

الثالث: الاعتراض على ذلك بالسياسات الجائرة التي لأرباب الولايات التي قدموها على حكم الله ورسوله، وحكموا بها بين عباده، وعطلوا لها وبها شرعه وعدله وحدوده.

فقال الأولون: إذا تعارض العقل والنقل: قدمنا العقل.

وقال الآخرون: إذا تعارض الأثر والقياس: قدمنا القياس.

وقال أصحاب الذوق والكشف والوجد: إذا تعارض الذوق والوجد والكشف.

وقال أصحاب السياسة: إذا تعارضت السياسة والشرع: قدمنا السياسة.

فجعلت كل طائفة قبالة دين الله وشرعه طاغوتًا يتحاكمون إليه.

فهؤلاء يقولون: لكم النقل، ولنا العقل. والآخرون يقولون: أنتم أصحاب آثار وأخبار، ونحن أصحاب أقيسة وآراء وأفكار. وأولئك يقولون: أنتم أرباب الظاهر، ونحن أهل الحقائق. والآخرون يقولون: لكم الشرع، ولنا السياسة.

فيا لها من بلية، عَمَّتْ فَأَعْمَتَتْ، ورزية رَمَتْ فَأَصْمَتَتْ، وفتنة دعت القلوب فأجابها كل قلب مفتون، وأهوية عصفت، فصُمَّتْ منها الآذان، وعميت منها العيون. عطلت لها - والله - معالم الأحكام، كما نفيت لها صفات ذي الجلال والإكرام، واستند كل قوم إلى ظلم وظلمات آرائهم، وحكموا على الله وبين عباده بمقالاتهم الفاسدة وأهوائهم، وصار لأجلها الوحي عرضة لكل تحريف وتأويل، والدين وقفاً على كل إفساد وتبديل.

النوع الثالث: الاعتراض على أفعاله وقضائه وقدره؛ وهذا اعتراض الجهال. وهو ما بين جلي وخفي، وهو أنواع لا تحصى.

وهو سار في النفوس سريان الحمى في بدن المحموم، ولو تأمل العبد كلامه وأمنيته وإرادته وأحواله لرأى ذلك في قلبه عياناً؛ فكل نفس معترضة على قَدَرِ الله وقَسْمِهِ وأفعاله، إلا نفساً قد اطمأنت إليه، وعرفته حق المعرفة التي يمكن وصول البشر إليها، فتلك حظها التسليم والانقياد، والرضى كل الرضا»^(١).

ويقول الأستاذ عمر الأشقر حفظه الله تعالى: «إذا تحقق معنى الرقيب في قلب العبد، ومملك عليه زمام نفسه، أورثه ذلك التقوى، وراقب نفسه، أن لا يراها حيث نهاها، ولا يفتقدها حيث أمرها، وتأتيه

(١) مدارج السالكين ٢/٦٨، ٦٩، ٧٠، ٧١ (باختصار).

المغريات والشهوات التي تدير الرؤوس، يسوقها شياطين الجن والإنس، كي يدخلوا العباد في متاهات الباطل، وظلمات الفساد، فتأتي رقابة الله التي استقرت في قلب العبد، فكانت حماية ووقاية، علم العبد أن الله رقيب عليه، عالم به، وعلم أن الملائكة الكرام الكاتبين الذين يرقبون أعماله وأقواله، ويطلعون عليه، ويدونون كل ما يصدر عنه: ﴿ مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾ [ق: ١٨]...

إن غرس الرقابة في النفوس عبر تعريف العباد بصفات الله، هي الضمان لبناء النفسية الإسلامية الأصيلة التي تخاف الله وتخشاه، فلا تمتد اليد إلى الحرام، ولا تنظر العين إلى الحرام، وإذا دخل المال الحرام جيب التقيّ رآه كالشعبان الذي أدخله في جيب قميصه، لا يهدأ له بال حتى يتخلص منه، وقد يزيد عليه كفارة لذنبه.

ومتى راقب العبد ربّه أحسن قوله وعمله، فبلغ درجة الإحسان للملك الديان، وما أحسن قول الشاعر:

«إذا ما خلوت الدهر يوماً فلا تقل خلوت ولكن قل عليّ رقيب
ولا تحسبن الله يغفل ساعة ولا أن ما تخفيه عنه يغيب
ألم تر أن اليوم أسرع ذاهب وأن غداً للناظرين قريب»^(١)



(١) أسماء الله الحسنى، د. عمر الأشقر ص ١٧١، ١٧٢.